قراءة نقدية لكتاب التفكير

تأليف "تقي الدين النبهاني" مؤسس حزب التحرير



بقلم

سامر إسلامبولي

قراءة نقدية لكتاب

التفكير

تأليف

" تقي الدين النبهاني"

مؤسس حزب التحرير

بقلم

سامر إسلامبولي

الكتاب: قراءة نقدية لكتاب التفكير

المؤلف: سامر إسلامبولي

رسم الغلاف: سيرين سهيل الفاتح

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }الحجرات13

بسم الله الحي القيوم

هذا الكتاب(التفكير) هو من آخر ما ألفه "النبهاني" في حياته قبل وفاته في آخر السبعينات من القرن العشرين، ويُعد عند أتباعه كتاب هام جداً، وربما عدّوه أهم كتاب في موضوعه على مستوى الفكر العالمي.

ليس الهدف من هذه القراءة نقض الكتاب، وإنما نقده وتقويمه ومساعدة أتباع الرجل على الانفتاح على الآخرين والحوار معهم، والتعايش مع الرأي الآخر المختلف عنهم، و التفريق بين الحكم على الفكرة بالكفر، والحكم على الشخص بالكافر، وهذا ما وقع به "النبهاني" عندما حكم على فلاسفة المسلمين بأنهم كفّار جميعاً.

ودعوتهم للرجوع إلى القرءان في دراستهم ، والاعتماد عليه مصدراً علمياً وفكرياً وتشريعياً ونفسياً، وعدم الانزلاق في متاهات مصطلحات الآخرين والاعتماد عليها في الدراسة مما أدى إلى الوصول إلى مفاهيم مختلفة مع القرءان مثل مفهوم التعقل، والتفكير، والإدراك....الخ، فقد أعطاهم "النبهاني" مفهوماً واحداً رغم أنه يتبنى قاعدة: (إذا اختلف المبنى اختلف المعنى) التي ذكرها في كتابه أصول الفقه (الشخصية ج 3)، ولكن أثناء الدراسة جمّد هذه القاعدة، وبعمله هذا وقع في أخطاء جمة في منهجه كاملاً أصولاً وفقهاً وفكراً.

ونلاحظ أن دراسة النفس مُبعدة تماماً من كتاب التفكير، وكأنها غير موجودة عنده ككائن غير الجسم، وهذا أدى إلى تخبطه في تحليل عملية التفكير كيف تتم لأن التفكير فعل للنفس وليس للجسم، وتابع دراسته للغرائز الجسمية والحاجيات العضوية، وفاته أن للنفس أيضاً غرائز وحاجيات وهي الأصل الذي يميز الإنسان عن الحيوان البهيمي.

غير استخدامه كلمات للحيوان لايصح استخدامها إلا للإنسان مثل فهم، وأدرك، وعرف، وميز، ومرد ذلك لعدم ضبط دراسته على القرءان.

أما تناقضه فحدث ولا حرج، تجده يقر بصواب قاعدة (قياس الغائب على الشاهد)، ويطالب الباحثين بالتقيد بها، وينقد قياس الشاهد على الغائب، بحجة أن الغائب ليس واقعاً ليكون موضعاً للتفكير، ويبطل كل النتائج التي بُنيت عليها، ونجده عندما درس المعلومات السابقة وأهميتها لحصول التفكير اعتمد على الإنسان الأول (آدم) واختبأ وراء نص قرءاني {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء }البقرة31، وخلط بين فعل (علم) وفعل (عرف)، وعد أن كلمة (أسماء) هي مجرد ألفاظ متعلقة بالمسمى، مع العلم أن معرفة ذلك ليس علماً قط، وليس ميزة لمخلوق عن الآخر.

والقرءان حدد أن التعليم للإنسان لا يكون إلا بالقلم{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} العلق4، والقياس الصواب هو أن الإنسان القديم فكّر وتعلّم مثل الإنسان الحديث، وهذا يعني أن الدراسة ينبغي أن تنصب على الإنسان الحديث المشاهد والوصول إلى نتائج نطبقها على الإنسان كجنس لأنه لم يتغير في وجوده.

غير أنه وقع في خدعة الشيوعيين في إنكارهم وجود خالق للكون، فكانت هذه الفكرة الحجر الذي أصاب بحثه مقتلاً، وذهب يُثبت الثابت الفطري، ووقع بأمور ما ينبغي أن يقع فيها مثله؛ مثل قوله:بفناء المادة، بمعنى زوالها إلى لاشيء، ونفى عن الواقع أنه مصدر للمعلومات إضافة إلى أنه موضع، وكل ذلك لينقض الفكر الشيوعي بأي شكل من الأشكال.

دمشق 15/ 3/ 2011م

القراءة النقدية

وضعت كلام "النبهاني" أولاً مرقماً ونقده تحته بحرف التاء، ولم أضع رقم الصفحة لأن النسخة التي عندي من النت ويختلف إعدادها من نسخة إلى أخرى، والكتاب في أصله لا يوجد فيه فصول أو عناوين أو فهرس، وسألت أحد القياديين عن ذلك ، فقال: للمحافظة على تراث النبهاني كما هو!

1- الإنسان فضله إنما هو في عقله، فعقل الإنسان هو الذي رفع شأن هذا الإنسان وجعله أفضل المخلوقات.

ت- فضل الإنسان ليس بعقله فقط ، لأن الملائكة كائنات عاقلة أيضاً، و فضل الإنسان أتى من جراء منحه الإرادة التي نتج عنها الحرية وجعله خليفة في الأرض.

2- ولا يمكن الاهتداء إلى واقع التفكير ، إلا بعد معرفة واقع العقل معرفة يقينية بشكل جازم، لأن التفكير هو ثمرة العقل.

ت- كلمة عقل كاسم لم تستخدم في القرءان قط، وإنما أتى كلمة يعقلون {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج46، أو تعقلون {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} البقرة44، أي بصيغة فعل وليس بصيغة اسم.

وكذلك التفكير لم تأت إلا بصيغة الفعل {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} الحشر21 ، أو تتفكرون {قُل لاَّ

أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ }الأنعام50.

وفعل التعقل من وظيفة القلب {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج46.

وفعل التفكر عملية مركبة من عدة عوامل أساسها فعل التعقل، وكل فعل تفكر هو تعقل،والعكس غير صواب.

3- أي يمكن إدراك أن الكيمياء علم، وأن ما يسمى بعلم النفس وعلوم الاجتماع ليست علماً.

ت- العلم علم سواء أكان بالطريقة التجريبية أم الطريقة العقلية، أليس للنفس الإنسانية وجود مختلف عن الجسم، أليس هي من خلق الله ، وخلق الله كله تم بقدر وبسنن تحكمه، وهذا يعني أن تدرس ويتم اكتشاف سننها ويسمى ذلك علم وكذلك المجتمع، وبصرف النظر عن النتائج فهي على غالب الظن، والعلم تراكمي متنامي تصاعدي.

4- ولكن هذه التعاريف(للتفكير)، أو بعبارة أخرى هذه المحاولات، لا يوجد فيها ما يستحق الذكر، ولا ما يرتفع إلى مستوى النظر، سوى محاولة علماء الشيوعية، فإن تعريفهم وحده هو الذي يمكن أن يستحق الذكر، ويمكن أن يرتفع إلى مستوى النظر، لأنها محاولة جدية، لم يفسدها عليهم إلا إصرارهم الخاطىء على إنكار أن لهذا الوجود خالقاً.

ت- دراسة وظيفة القلب التعقل أو التفكر لاعلاقة لهما بموضوع وجود الخالق أو نفيه قط.

5- إلا إنهم حين حاولوا ربط الواقع بالدماغ للوصول إلى الفكر، أي لإيجاد التفكير، ضلوا الطريق، فجعلوا الرابط بينهما هو انعكاس هذا الواقع على الدماغ. فخرجوا بالنتيجة الخطأ في معرفة العقل، ولذلك عرفوا العقل تعريفاً خاطئاً. وسبب ذلك هو إصرارهم على إنكار أن للوجود خالقاً خلقه من عدم........ ولكن أساس الخطأ لم يكن من عدم التفريق بين الإحساس والانعكاس، وإلا لكانوا اهتدوا إلى أن المسألة هي إحساس وليست انعكاساً. بل أساس الخطأ، وأساس الانحراف، ناتج عن إنكارهم أن لهذا الوجود خالقاً.

ت- توقف النبهاني عند كلمة (انعكاس) غير مبرر ولعل الترجمة التي قرأها خطأ، لأنه لا يقول أحد إن الدماغ سطح مصقول فيه قابلية عكس الصور! ومن يقرأ رأي الشيوعيين يدرك أن مقصدهم هو نقل الإحساس بالواقع إلى الدماغ عن طريق أحد أدوات الحس الخمسة، وإصراره على أن الخطأ نتيجة إنكار وجود خالق عجيب وغريب ،فالمسألة لا علاقة لها بوجود الخالق أو إنكاره قط، والله لم يخلقنا من عدم كما قال النبهاني ، لأن كلمة (عدم) تدل على فقدان فاعلية الشيء ورجوعه إلى المادة الخام المهملة، ومنه قولنا إعدام المجرم ، وقولنا للفقير المدقع هو: معدم، وكلمة عدم لم يستخدمها القرءان قط، وهي تعني الشيء الفاقد للفاعلية ، ولا تعني اللاشيء، لأن اللاشيء هو اللا شيء، ولا يُعَرَّف ، ولو عُرِّف لصار شيئاً، والله خلق الخلق بعد أن لم يكن شيئاً كما قال : {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً }مريم67، ولم يخلقه من شيء ولا من لاشيء! لأن الأمر لو كان كذلك لصار اللاشيء شيء، والعبارة القرءانية واضحة في دقتها وإحكامها{خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً}.

6- أساس الخطأ، وأساس الانحراف، ناتج عن إنكارهم أن لهذا الوجود خالقاً، فلم يدركوا أن وجود معلومات سابقة عن هذا الواقع شرط ضروري لوجود الفكر، أي شرط ضروري لوجود التفكير، وبالتالي شرط ضروري لتكوين العقل، أي ليكون هناك عقل، أي هناك فكر، وتفكير. وإلا لكان لدى الحمار عقل، لأنه يملك الدماغ، وينعكس الواقع على دماغه، أي يحس بالواقع.

ت- مغالطات كبيرة وقع فيها النبهاني ما كان ينبغي أن يقع فيها.

أولاً : موضوع وجود الخالق أو إنكاره لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بموضوع التفكير ودراسته.

ثانياً: تخبطه في استخدام مفهوم العقل، والفكر، والتفكير بدل بعضهم بعضاً، وجعلهم واحداً من حيث الدلالة.

ثالثاً: اشتراطه وجود معلومات سابقة عن الواقع شرط لحصول عملية التفكير غير صواب من حيث الواقع، لأن الإنسان يستطيع أن يتعامل مع الواقع ويحصل على معلومات من خلال التجارب وملاحظة ما يطرأ عليه من تغير ويصل إلى اكتشاف القانون الذي يحكمه فيسخره لحاجته ، وقديماً قيل : الحاجة أم الاختراع. وهذا يدل على أن الواقع مصدر للمعلومات وموضع للتفكير بالوقت ذاته.

رابعاً: الحمار لا يفكر رغم وجود الدماغ والإحساس بالواقع ليس لأنه لا يملك معلومات سابقة، فالمعلومات متوفرة عند غيره، ولا يمكن أن يحصل عليها لانتفاء وجود نفس لديه التي هي كائن خاص منفوخة بالإنسان بواسطة الروح، وفيها نظام الوعي والتمييز والإدراك المتمثل بالفؤاد،

وعندما ينزل الفؤاد في الدماغ يشكلان مع بعض القلب الذي وظيفته التعقل والسمع والبصر، وهذه الوظائف غير موجودة عند البهائم ، لذا؛ لا يمكن أن تتعقل أو تفكر رغم وجود المعلومات في الواقع وإمكانية الحصول عليها.

7- يقول الله تعالى في كتابه العزيز "وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" فهذه الآية تدل على أن المعلومات السابقة لا بد منها للوصول إلى المعرفة، أي معرفة، فآدم قد علمه الله أسماء الأشياء أو مسمياتها فلما عرضت عليه عرفها .فالإنسان الأول، وهو آدم، قد أعطاه الله معلومات، ولذلك عرف الأشياء، ولولا هذه المعلومات لما عرفها. وبما أن أساس الانحراف في الطريق الذي سلكه علماء الشيوعية للوصول إلى معرفة واقع العقل هو ضرورة وجود المعلومات السابقة، فإن هذا يكفي لبيان خطأ الشيوعيين في تعريف العقل، ويكفي لبيان وجه الانحراف، وأنه حتى يتوصل لإيجاد الفكر لا بد من المعلومات السابقة عن الواقع الذي يعرض على الدماغ.

ت- أول أمر خلطه بين دلالة كلمة (عَلِم) وكلمة (عَرف) والنص الذي استشهد به لايوجد فيه كلمة (عرف) قط، فالنص يقول (علَّم آدم) يحولها هو بسطحية إلى عرف، ويقول : فآدم قد علمه الله أسماء الأشياء أو مسمياتها فلما عرضت عليه عرفها. عجيب هذا التصرف من باحث في التفكير والقرءان الذي نزل بلسان عربي مبين، كيف تحولت كلمة (علم) إلى (عرف)؟

- يقول : فآدم قد علمه الله أسماء الأشياء أو مسمياتها. ألا يوجد فرق بين دلالة كلمة الاسم، وكلمة المسمى؟ وكلمة اسم تدل على وظيفة الشيء أو نظامه ، وتعليم أسماء الأشياء لا تعني مجرد الألفاظ المطلقة عليها فهذا ليس علماً ولا يصح الفخر به والتميز عن الآخرين!

- أليس آدم إنسان؟ ألم يقل الله : {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ }العلق 1- 4، فالتعليم للإنسان كان بالقلم.

- النص لا يدل على فكرة النبهاني لا من قريب ولا من بعيد، وهو بحاجة إلى دراسة في غير هذا المكان.

و ينقض النبهاني نفسه بنفسه عندما يقول إن الإنسان القديم ليس واقعاً محسوساً وبالتالي لايصح دراسته أو القياس عليه ، ومع ذلك يقيس عليه، ويثبت نتيجة ظنه وكأنها علم ثابت ، ألا يدل هذا على تخبطه أو تعمده التدليس لتثبيت نتائج خاصة به؟

انظروا قوله التالي كيف ينقض قوله السابق:

فإنه حين يقال إن الإنسان الأول قد جرى تفكيره على الوجه الفلاني لا يعتبر تفكيراً، لأن الإنسان الأول ليس واقعاً محسوساً، وإنما الإنسان الحالي هو الواقع المحسوس، فيؤخذ الإنسان الحالي. ويبحث ليعرف كيف يجري تفكيره، ثم ينطبق ما جرى التوصل إليه من نتيجة البحث على جنس الإنسان. لأن الجنس الواحد لا يختلف، أو النوع الواحد لا يختلف، وينطبق على جنسه وعلى نوعه كل ما ثبت لفرد من أفراده، لأنه جنس واحد ونوع واحد.

8- وهذا الطفل لو كبرت سنه وبلغ عشرين سنة، ولم يأخذ أية معلومات، فإنه يبقى كأول يوم يحس بالأشياء فقط، ولا يدركها مهما كبر دماغه، لأن الذي يجعله يدرك ليس الدماغ، وإنما هو المعلومات السابقة مع الدماغ ومع الواقع الذي يحسه.

ت- وهذا الكلام خطأ بين ومكابرة لأن الإنسان من خلال التجربة والتكرار والحاجة يصل إلى العلم بالشيء ويكتشف قانونه ويسخره لخدمته ولو لم يكن عنده ابتداء أي معلومات سابقة عنه، والواقع شاهد على هذا القول، والإدراك ليس بالدماغ فالحمار عنده دماغ، الإدراك وظيفة للفؤاد في النفس!

9- فأنت إذا ضربت الجرس وأطعمت الكلب عند ضرب الجرس، فإنه إذا تكرر ذلك يفهم الكلب إذا قرع الجرس أن الأكل آت ولذلك يسيل لعابه.

ت- هل صار الكلب يفهم عند النبهاني، أليس الفهم عملية عقلية خاصة للإنسان؟ وهل يمكن أن يصير إدراك عند الكلب أن الطعام آت؟ {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ }الأنبياء79

10- (لذلك فإن كون الإنسان يعرف من عوم الخشبة أنه يمكن أن يجعل من الخشب سفينة، هي مثل كون القرد يعرف أن إسقاط الموزة من قطف موز معلق يمكن أن يحصل من ضرب قطف الموز المعلق بعصا أو أي شيء. فكله متعلق بالغرائز والحاجات العضوية، وحصوله

حتى لو ربط وجعل معلومات هو عملية استرجاع وليس عملية ربط، ولذلك لا يكون عملية عقلية، ولا يدل على أن هناك عقلاً أو فكراً).

ت- هل إن رأى الإنسان طيراً يحلق في السماء يمكن أن يصنع مركبة فضائية دون تفكير؟

وهل إن رأى القرد خشبة يمكن أن يصنع سفينة ولا يملك تفكيراً؟

صنع سفينة عند الإنسان مثل ضرب قطف موز بعصا عند القرد؟ لايستويان مثلاً!



11- حتى تتم العملية العقلية، أي حتى يوجد العقل أو الفكر. فلا بد من وجود واقع. ولابد من وجود دماغ صالح، ولابد من وجود حس، ولابد من وجود معلومات سابقة. فهذه الأربعة مجتمعة لابد من تحققها جميعها وتحقق اجتماعها، حتى تتم العملية العقلية، أي حتى يوجد عقل أو فكر أو إدراك .وعليه فالعقل أو الفكر أو الإدراك هو: نقل الحس بالواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ، ووجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها هذا الواقع .هذا وحده هو التعريف الصحيح، ولا تعريف غيره مطلقاً، وهذا التعريف مُلزِم لجميع الناس.

ت- ما زال يتخبط في استخدام كل من كلمة العقل والتفكير والفكر والإدراك بمعنى واحد.

هل وجود : دماغ+ حواس+ واقع+ معلومات سابقة= تفكير أو تعقل أو إدراك؟

أليس معظم الناس عندهم هذه الأمور الأربعة مجتمعة ولا يحصل تفكير أو إدراك عندهم، بل ولا يُحرِّكون ساكناً. أين جهاز التمييز الثلاثي النفسي (السمع والبصر والفؤاد)، وماهي وظيفته في التفكير وهل هو مهم أم لا؟

12- وكذلك كان يقال إن المادة لا تفنى، فظهر خطأ ذلك وتبين بالطريقة العلمية نفسها أنها تفنى.

ت- أكبر خدعة مارسها الغرب بواسطة الشيوعيين على المسلمين هي مسألة إنكار وجود خالق للكون، وذلك ليلهوا الأمة الإسلامية عن نهضتهم وتطورهم، وسرعان ما تناولت الأمة الطعم، وسارع المفكرون والباحثون في التصدي لهذه الفكرة كتابة وخطابة ودعوة، وغرقوا

بذلك أكثر من ثلاثين عاماً يتخبطون ويحاولون إثبات وجود خالق للكون، والشيوعيون، ومَن خلفهم يضحكون عليهم، ويسرقون خيرات البلاد ويحكمون الشعوب.

والملاحظ في معظم المفكرين الإسلاميين أنهم هجروا القرءان في دراستهم واعتمدوا على القيل والقال والمنطق الخالي من العلم، وفاتهم إن القرءان كتاب هداية للناس ومنهج في التفكير وتناول القضايا الكبرى التي تهم الناس وناقشها وفنّد شبهاتها.

تعالوا لندرس القرءان ونرى موقفه من إنكار وجود الخالق وكيف عالجها:

الدارس لكل النصوص القرءانية لا يجد ولا أي نص يناقش إثبات وجود خالق للكون، وإنما يناقش مفهوم الأحدية للخالق ويُفنِّد مفهوم الشرك ويبطله، وكذلك مفهوم الكفر بالله، واعتمد في ذلك كله على مُسلّمة عند الناس ليست هي محل نقاش من أحد، وهي لابد من خالق وجوباً عقلياً، وضرورة نفسية، وهذا المفهوم لا يمكن للإنسان أن يدفعه من نفسه، وذلك مثل مفهوم واحد زائد واحد، جميع الناس على مختلف الزمان والمكان يقولون بأنفسهم: اثنين، ولا يستطيع أن يخدع نفسه، ولكن يمكن أن ينكر ذلك بلسانه جحوداً واستكباراً، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }النمل14، فمفهوم وجود خالق للكون ليس محل نقاش أو برهنة، {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} إبراهيم10، لذا؛ مفهوم التصديق بوجود خالق للكون لا يخضع للبرهنة لبداهته، والإيمان بالله لا يخضع للبرهنة لأنه موقف أخلاقي وليس عقلياً، لأنه لا يوجد عاقل يطلب برهان على الالتزام بالقيم والأخلاق، فعلى ماذا كان يتناقش المسلمون والشيوعيون؟ على

مفهوم بديهي! ومن كان المخدوع بينهما؟ لاشك هم معظم المسلمين، ومن الجاحد بينهما؟ لاشك هم الشيوعيون.

وينبغي ضبط مفهوم (الفناء) في القرءان قبل نقاش الشيوعيين، كلمة (فناء) تدل على ذهاب الشيء، وهذا لا يعني أنه صار لا شيء، اقرؤوا قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ }الرحمن26، أي مَن على الأرض من الكائنات وذهابهم إلى التراب الذي هو أصلهم، فمفهوم الفناء في القرءان هو رجوع الشيء إلى أصله الخام، وبمعنى آخر: تحول الشيء من صورته الفاعلة إلى صورة غير فاعلة.

وعندما قال الشيوعيون:((إن المادة لا تفنى ولا تُستَحدث)، هو قول ينطبق على الشيء بعد خلق الشيء ابتداء، وهذا الواقع المشاهد، فالشيء المخلوق حديثاً ليس مادته مستحدثة، وإنما يوجد من شيء آخر، وكذلك الشيء عندما يفنى لا يذهب إلى لاشيء، وإنما يتحول إلى شيء آخر، ألا ترون أن الخشب إن احترق يصير رماداً؟ والماء إن تعرض لحرارة عالية يصير بخاراً ؟

وأصل الكائنات الحية من تراب وماء ومن ثم صار تكاثرها من ماء مهين؟

إذا؛ مفهوم الشيوعيين صواب يطابق القرءان والواقع، وذلك بصرف النظر عن خطأ استخدام كلمة (الفناء) من قبل الشيوعيين، وكان الأجدر بهم أن يقولوا:(إن المادة تفنى كصورة وتتحول إلى صورة أخرى، ولا تفقد صفة الوجود الموضوعي قط)، وبالتالي يمكن تصويب مقولتهم بجملة: (إن الشيء الموضوعي الحالي لا يصير لاشيء ولا يُستحدث) .

والنبهاني لم يفهم مقولة الشيوعيين لحاجة في نفسه وتأثراً بمحاولته المستميتة لإثبات وجود خالق للكون! فقال : المادة تفنى. ولم يقصد المفهوم القرءاني الذي ذكرناه، وإنما قصد ذهاب الشيء إلى لاشيء، وهذا مخالف للقرءان والعلم والواقع، وكما لاحظتم عدم ضبط المفهوم نتج عنه إشكال وسوء فهم، غير أن النبهاني يحشر مسألة إثبات وجود خالق في كل مسألة حتى في دراسته للتفكير، ومثله مثل الشيوعيين الصغار الذين استخدموا مفهوم الفناء لإنكار وجود خالق، فمفهوم الفناء صواب وعلمي، واستخدامه في إثبات وجود خالق أو إنكاره من الطرفين كان مؤدلجاً وغير علمي.

وأنا ألوم "النبهاني" الذي قدّم نفسه كمفكر إسلامي، ومؤسس حزب، وباحث في التفكير، كيف يتبنى مفهوم مخالف للقرءان وللعلم! وهذا نتيجة هجره للقرءان كمنهج في التفكير في كل دراساته وأبحاثه! وحرصه على إثبات وجود خالق للكون، وهو ثابت أصلاً.

فعدم ذهاب الشيء الموضوعي إلى لاشيء، وفنائه من صورته إلى صورة أخرى، وحدوث الشيء من شيء، لايعني أن الشيء الموضوعي الأول هو أزلي، فثابت علمياً ومنطقياً أن الشيء الأول لابد له من بداية ضرورة لمحدوديته وقصوره، ولابد له من موجد مغاير في وجوده للشيء سماه العلماء "واجب الوجود" علماً وعقلاً وواقعاً، وهو أكبر حقيقة غير قابلة للبرهنة عليها لبداهتها.

ومثل ذلك مثل وجود الدائرة، فهي حادثة في وجودها ككل، وعندما وجدت أخذت كل نقطة منها صفة إمكانية أن تكون هي البداية والنهاية، وشكلت مع النقاط الأخرى علاقة

جدلية حيث تصير الدائرة لا بداية لها ولا نهاية، وهذا لا ينفي عن الدائرة ككل أن لها بداية حدوث بعد أن لم تكن، والمثل للتقريب وليس للمطابقة.

فالخالق ابتدأ خلق الشيء بعد أن لم يكن شيئاً بقدرته الإلهية، وجعله سرمدي في الوجود بمعنى له بداية وليس له نهاية، هكذا أراده الخالق بحكمته وعلمه، واستمر الشيء الموضوعي على هذه الصفة يفنى ليظهر في صورة أخرى ويتوالد، ولا يصح القول: إن الخالق خلق الشيء من عدم، لأن العدم هو شيء فقد صلاحيته، وهذه الكلمة غير مستخدمة في القرءان وهي قريبة من مفهوم كلمة الفناء، والقول بها يلزم منه أزلية الشيء، ولا يصح أيضاً القول : إن الخالق خلق الشيء الموضوعي من لاشيء، لأن اللا شيء هو لاشيء، ولايخرج الشيء من لاشيء، والإسناد له يُصَيّر اللاشيء شيئاً.

إذاً؛ ما الصواب في هذه المسألة؟

الصواب هو قول الله نفسه: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً }مريم67، خلق الله الخلق بعد أن لم يكن شيئاً، وليس من شيء فاني (العدم)، ولا من لا شيء !! وإلى هنا يُصَدِّق العلم والعقل ذلك ضرورة، ويقف مُتحيراً من قدرة الخالق كيف خلق الشيء بعد أن لم يكن شيئاً! وهذا التحير العقلي هو من مقومات الإيمان والخشية والتعظيم للإله لأنه يدرك تماماً أن هذا لا يكون إلا للخالق الأزلي، وإلا لماذا هو إله أزلي؟ فيزداد إيماناً وخشية وتعظيماً له، {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }الأنعام91 .

ومقولة الشيوعيين: (لا إله والحياة مادة) هي مقولة سياسية مؤدلجة وليس مفهوماً علمياً، وهي رد فعل على إله الكنيسة والكهنوت الديني في الغرب، فلا تصلح للنقاش علمياً، لأن الإله له صفة واجب الوجود، والحياة ليست كلها مادة! أين القيم والأخلاق والشعور النبيل بين الناس؟ ولاتصلح للنقاش في الشرق! لأن الدين الإسلامي لا يوجد فيه كهنوت وكنيسة، وبالتالي من الخطأ الفاحش ترديدها في ثقافتنا ونقاشها، و من يرددها في مجتمعاتنا أشبه بترديد مقولة: تعال نتناقش دون عقل أو علم!

وكذلك مقولة: فصل الدين عن الحياة أو الدولة، فهذه مقولة سياسية غربية، متعلقة بدين الكنيسة حصراً، ولا تنسحب على كل دين، ولا تنطبق على الشرق، لان الدين الإسلامي يقوم على العلم والموضوعية والبينات والقيم والأخلاق وحفظ الأسرة والحريات، فكيف تفصل هذه الأمور عن الحياة أو الدولة؟

أما افتراض أن الله يستطيع أن يفني الشيء الموضوعي بمعنى الذهاب به إلى لا شيء، فهذا افتراض باطل يصدر من إنسان لا يعلم مقومات الإله العظيم، ويقيسه على إنسان قاصر يُعدّل في صنعته حسب ما يستجد له من العلم والتطور ويُلغي صنعته الأساسية لقصورها أو خطئها، فالله عالم حكيم كامل في إرادته وقدرته، و إذا أراد شيئاً كان الشيء وفق ما أراد له، و قد خلق الله الخلق ليستمر وفق سنن تحكمه بمرحلتين الدنيا والآخرة ولكل منهما قوانين خاصة بها، {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }إبراهيم48، والفناء هو تغير في الصورة والانتقال إلى أخرى، وليس ذهاب الشيء إلى لا شيء، والناس يفنون في الدنيا ليبعثهم الله في الآخرة، والقول بقدرة الله على الذهاب بالشيء إلى لاشيء،

هو مثل القول إن الله يمكن أن يضع الأنبياء والصالحين في جهنم، ويضع الظالمين والمجرمين في الجنة! فكلا المقولتين ينقضان الحكمة والعدل والعلم الإلهي، وبالتالي الافتراض باطل ولا جواب للباطل.

فإثبات وجود خالق للكون، والإيمان به مسألتان غير قابلتان للبرهنة أو النقاش، وذلك لأن التصديق بوجود خالق للكون بداهة واقعية غير قابلة للدفع في نفس الإنسان وعقله، ومسألة الإيمان به بمعنى الإتباع لمنهجه وحدوده موقف أخلاقي وقيمي، والأخلاق لا يبرهن عليها لأنها مقوم أساسي في ضمير الإنسان وشعوره، فلا يحتاج العدل، والصدق، والأمانة...الخ؛ إلى برهان، ولا يطلبه أحد أصلاً، {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً }الكهف29، ولايصح أن يأتي الخطاب بكلمة (فمن شاء فليصدق ..) لأن التصديق لا يخضع للإرادة، وإنما يخضع للبرهان، وإن حصل لا يستطيع الإنسان أن يدفع التصديق به أو قبوله في نفسه، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }النمل14.

لذا؛ ينبغي أن يتحرر عقل المسلمين من هذا الفخ الحواري، ويكفوا عن إثبات ما هو ثابت بالضرورة، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا إكراه في الدين، ويرجعوا إلى دراسة القرءان والعلم والواقع لينهضوا بأنفسهم ومجتمعهم وبلادهم وفق التعايش الإيجابي، والتماسك الوطني، والتعارف الإنساني، والنهضة بالعباد والبلاد على محور الثابت والمتغير(الحنيف) للحريات والواجبات.

13- والحكيم الذي قال: رأس الحكمة مخافة الله، ليس مفكراً مستنيراً، فإن رأس الحكمة إدراك وجود الله، وليس مخافة الله.

ت- من المعروف إن الخوف من الله يأتي بعد التصديق بوجوده وليس قبله، والتصديق بوجود خالق للكون مسألة فطرية بديهية تحققت في نفوس الناس جميعاً، مثل إبليس وفرعون وهامان وقارون وأبو جهل وأبو لهب....الخ، وهذا شيء ضروري لتحقيق العدل الإلهي وإقامة الحجة على العباد، وهذا الإدراك الفطري لا يحتاج إلى تفكير أصلاً فهو الحد الأدنى للتعقل، ومن باب أولى نفي التفكير المستنير عنه!، وبالتالي فإدراك وجود خالق للكون ليس فكراً مستنيراً ولايحتاج حكمة أصلاً ، والصواب هو مقولة: رأس الحكمة مخافة الله، وقائلها صاحب تفكير مستنير.

14- فالأعرابي الذي قال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، هو مفكر مستنير.

ت- إن سماع الطرق على الباب وإدراك وجود طارق مسألة لاتحتاج إلى تفكير ودراسة وتدبر، وإنما تحتاج إلى تفاعل مع الواقع بالحد الأدنى الذي هو التعقل لما يجري حول الإنسان من أحداث فيصل إلى معرفة أسبابها أو فاعلها ، وبالتالي فصاحب هذه المعرفة والإدراك لم يستخدم التفكير أصلاً، وبالتالي ينتفي عنه صفة التفكير المستنير.

15- ومن هنا كان من الخطأ أن يظن أحد أن تعلُّم القراءة والكتابة يعلم الناس أو ينهض الأمم . فكان من الخطأ أن توجد عناية بإزالة الأمية من أجل تعليم الناس وأن يوجه الجهد لمحو الأمية من أجل إنهاض الشعب أو الأمة. لأن القراءة والكتابة لا تغذي العقل بشيء، ولا تبعث لا في النفس ولا في العقل أي دافع للتفكير.

ت- النص كله مضطرب في استخدام الكلمات الهامة المحورية بشكل خطأ التي هي:

- القراءة من قرأ التي تدل على التدبر والتفكر والدراسة ولايشترط لها التلاوة من مخطوط. لذلك كان النبي قارئاً بهذا المعنى ، وأمره الله أن يقرأ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق1.

- الكتابة من كتب تدل على جمع شيء من جنس واحد سواء أكان معنوياً أم مادياً.

وسمي الكاتب كاتباً لأنه يجمع الأحرف والكلمات مع بعضها سواء نسخها على الصحف والورق ام في ذهنه فقط كتأليف، ومن هذا الوجه فالنبي كان كاتباً ويملي ما يريد على النساخ فيخطون كلامه .

والمنفي عن النبي في القرءان هو عملية الخط على الصحف أو الألواح، وتلاوة هذا الخط، ولكن كان يقرأه عندما يتلوه أحدهم له، وكان يكتب الرسائل للملوك من خلال إملائها على النساخ.

- الأمية من الأم التي تدل على المركز والأصل والمرجع ، والنبي الأمي مدح له وليس ذماً ، وتعني الإمامة والأصل والمرجع وأنه ينتسب إلى أم القرى.

وعدم معرفة الخط أو تلاوة المخطوط لا يسلتزم منهما عدم معرفة القراءة والكتابة.

وبناء على ذلك فالقراءة والكتابة أمران مهمان لنهضة الشعوب بهذا المعنى، ومعرفة الخط وتلاوته هما أدوات لازمة وتقنية لتوثيق العلم والمعلومات والجدولة لأن التقليم شيء أساسي للعلم.

16- فيهز مشاعرهم، ويبعث فيهم ما يقتضيه هذا الانفعال من غبطة ورضا، أو سخط وغضب.

ت- كلمة (مشاعر) جمع كلمة (مَشعر) { فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} البقرة198، وهي من الخطأ الشائع، والصواب استخدام كلمة (الشعور) بدل منها.

17- ولذلك فإن جميع من يسمون بفلاسفة المسلمين أو فلاسفة الإسلام كفار، لا فرق بين ابن سيناء والفارابي، ولا بين ابن رشد والكندي.

ت- أتى خطأ النبهاني من عدم التفريق بين دلالة كلمة (الكفر) وكلمة (الكافر) التي هي اسم فاعل، فكلمة الكفر تطلق على موقف سلوكي يغطي الحقيقة بجهد سواء بقصد أم غفلة أم خطأ، فهو حكم متعلق بالسلوك وليس بالشخص، وهو حكم قابل للتجزيء، بمعنى إن المسلم يمكن أن يصدر سلوك منه دون قصد أو خطأ ينتج عنه تغطية الحقيقة ، فيكون هذا الموقف منه كفراً وليس هو كافراً، والتصورات الفلسفية للحياة والكون وما بعد الحياة وما قبلها، يمكن أن تكون صواباً أو خطأً أو كفراً إن كانت تغطية للحقيقة، وبصرف النظر عن قصد صاحبها أو حاله، بينما كلمة (كافر) اسم فاعل تطلق على الإنسان الذي اتخذ الباطل منهجاً يحارب

الحق ويعاديه، فهذا هو الكافر في القرءان، فهل كان الفلاسفة المسلمون يحاربون الحق والإسلام وأعداء لله ورسوله؟ والجواب قطعاً بالنفي فهم مسلمون آمنون مفكرون باحثون عن الحقيقة أخطؤوا أم أصابوا أم كفروا في بعض أفكارهم ، فهذا ليس بمبرر لأن يكونوا كفاراً أو كافرين.

18- وذلك أنا بوصفنا مسلمين لا يحق لنا أن نبحث إلا في التشريع الإسلامي. لأن الأمر الجازم الذي تحتمه عقيدتنا يحصر تفكيرنا بالتشريع الإسلامي وحده. وأما غير التشريع الإسلامي فلا يحق لنا أن نبحثه حتى ولا أن نقرأه.

ت- ما علاقة قراءة أو دراسة أو مقارنة التشريعات الإنسانية بالتشريع الإلهي بالتطبيق أو الإيمان؟ لماذا هذا الجمود والتنطع؟

19- والتفكير السياسي هو لرعاية شؤون الناس.

ت- لا يصح استخدام كلمة (الرعاية) للناس، فهي دخيلة من الثقافة اليهودية، وهي للبهائم خاصة{كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى }طه54، لان الرعاية موجهة فائدتها للراعي ، فنحن نرعى العجل لنسمنه ونأكله، واستبدالها بكلمة (العناية) الموجهة فائدتها إلى المعتنى به، فالله يعتني بنا ولا يرعانا.

وكذلك لا يصح استخدام كلمة (السياسة) فهي من ساس يسوس سياسة، متعلقة بالخيل أو بالكائن البهيمي، وعندما تستخدم للناس فيقصد بها المسايرة والخداع والمداهنة لتجعله يفعل

ما تريد منه وتحصل على حاجتك. وينبغي البحث عن كلمة أفضل منها ولعل كلمة (إدارة) أقرب للمعنى والمقصد في التعامل مع الناس واحترامهم والحفاظ على حقوقهم دون خداعهم.

20- وحين يقرأ ليعرف حكم الكلنيا، أي ما يسمى بالكولونيا يكفي أن يعرف أن المسكر حرام، وأن الكلنيا مسكر وهكذا.

ت- المنهي عن تناوله هو المادة التي تُغيب العقل والوعي ، ما علاقة الكولونيا في ذلك وهي تستخدم للعطور وليس للشراب؟

21- كل منهم في مقدوره أن يفكر تفكيراً سياسياً، وفي مقدوره أن يكون سياسياً، لأنه لا يتطلب درجة معينة من العقل ولا درجة معينة من المعرفة، بل يتطلب تتبع الوقائع والحوادث الجارية أي تتبع الأخبار، ومتى وجد هذا التتبع وجد التفكير السياسي.

ت- لقد ذكر النبهاني في كتابه: إن التفكير السياسي هو أرقى نوع من التفكير وأعلاه درجة فصاحبه مستنير الرؤية، فهل هذه الدرجة الراقية يصل إليها الإنسان من مجرد التتبع للأخبار في الصحف والوسائل المسموعة أو المرئية؟ هذا العمل يصنع إنساناً صحفياً جامعاً للأخبار وليس مفكراً سياسياً!